ميزة الإنسان الأولى!

من أعظم ما أعطى الله الإنسان هو تلك الهبة المنقطعة النظير، والعاجز عن وصفها كل لسان، ألا وهي الحرية، الممكنة صاحبها من تخيّر الأشياء، وإتيان أعماله بما خوّله من سلطان. وما أحسن صنع البشر، لضنهم بهذه الدرّة الكريمة، وافتخارهم بهذه المزية الفردية الفريدة. وما أضل القوم المدّعين ما لا يقبله العقل، ويمجّه المنطق، وهو خلو المرء من هذه الصبغة الجزيلة القدر والفائدة.

على ان كثيرين من أبناء هذا العصر، ان لم ينكروا الحرية نكرانا تاما، فقد حادوا عن جادة الصواب في ما يرجع الى ماهيتها وطريقة استعمالها. وقد استدرجهم الى هذه الوهدة بعض الأمثال المعوجة والذهنية العامة، ونجاحات مجتمعات الناس في ميدان الماديات، فطمحت النفوس المتهورة، ولا سيما في أعلى الهرم المتداعي، الى إساءة العمل، باسم الحرية، والمغالاة في إدّعاء الاستقلال الذاتي، أو التسامح المريب!

الجدير بذوي الحجى والنهى ان يستطلعوا كنه هذه المزية الفارقة بين البشر عن سائر الخلائق الأرضية، ليقفوا على ما هي عليه من الكمال، فيحسنوا ممارسة أعمالها، غير مفرطين ، متذكرين ان خير الأمور الوسط، وحب التناهي غلط. وما من وسيلة أنجع لبلوغ المرام، في هذا المقام، من تمحيص نظرية الحرية وحقيقتها بذلك المحك الفعّال، محك الدين القوّيم. وإذا كان أعداء الدين أو المعكّزين عليه قد تاهوا في بيداء الضلال والتضليل، منهم بنكرانهم وجود الحرية، وبعضهم بجهلهم أو تجاهلهم ماهيتها، وغيرهم بادّعائهم ان الدين مناهض لها... لائق بنا أن نستفتئ الدين أو الإيمان أو الضمير أو حتى العقل السليم، في كل قضية من هذه القضايا!

رحمنا الله بعنايته اليقظى!

د. جهاد نعمان (واشنطن)

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه